

اشكالية مصطلح "التصنيف"

في مقولة: "لا تأخذوا العلم من صمفي"

أ. محمد حمام

يتردد كثيرا استعمال مقولة "لا تأخذوا العلم من صمفي" على السنة بعض الشيوخ، على أساس المنع عن أخذ العلم من رجال الصحافة، فشكل ذلك بالنسبة إلي منطلقا لدراسة مصطلح التصنيف المستعمل وماذا يعنيه بالضبط. نحن نعيش عصرا إلكترونيا أشد تقدما ربما تفقد فيه المحاضرة المباشرة كل خصوصياتها تؤكد فيه تكنولوجيات الاتصال، على أن الاتصال سيتحكم فيه عن بعد، و كل المعلومات التي كانت حصرا على الموسوعات النادرة، سيجدها المتلقي أمامه، بمجرد استعمال لوحة المفاتيح. وانطلاقا من أن الكتابة تنطلق من ذكاءين، "ذكاء جمع المعاني" بالقلب و الحروف بالقلم، فقد أوردت ضمن منهج التحليل الوصفي لكثير من الم عاني التي تناولها فقهاء اللغة وضبطتها مختلف المخطوطات انطلاقا من الأجرومية "لأبي عبد الله محمد الصنهاجي"، والالفية لابن مالك، والجمل الكبرى في النحو لعبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي فك ان ذلك منهاجا أثار طريق اللغة والكتابة حتى قال الشاعر فيهم:

ما لناس إلا الكتية هم فضة في ذهبة

فقد أحرزوا دنياهم بشعبة من قصبة

ركزت في بداية الأمر على المعنى المقصود من التصنيف والصحافة، بشرح وافي لمصطلح التصنيف، ثم أشرت إلى الأسباب الجوهرية لتفسير معنى المقولة العلمية لا تأخذوا العلمي من صمفي.

هذا القول المأثور، قيل في وقت كثر فيه اللغظ اللغوي، وظهرت فيه المظارف الجادة والهزلية، إيجابي، إلا أن شعوبية العصر الحديث كما قال السنوبي في حاشية البيان : "والآن يوجد بيننا خسارة من هذا النوع، جهلوا ما للعرب من فضل، وراعتهم المدينة الأوروبية، فقلدوا أسلافهم الشعوبيين في الطعن على العرب وأدبهم ولغتهم، وأنقروا كل فضل لهم وردوا الفضل كل الفضل للأوروبيين." سطت على كل ما هو أصيل، فقد أُلِف القدامى من العرب المسلمين، الكثير من المخطوطات لمقاومة التصنيف، وأن الأوان أن نعيد تصفية المعلومات التي لقنها الصحافيون في عصور مضت، وأصبحنا نجزم أن ذلك قول قاله الفقيه الفلاني ولا مجال للمناقشة. على كل يبقى هذا العمل محاولة أخرى تضاف إلى لبنة المنهج العلمي ذي الموضوعية القارة وليست المتغيرة.

قسمت أبواب هذه الدراسة إلى 3 فصول ، أجبث في الفصل الأول على ماهية التصحيف لغويا وموضوعيا وأسبابه حدوثه، بالمصادر الخاطئة و المجالس المغالية، و في الفصل الثاني قدمت مفاهيم متعددة لمن الصحافة و مجالاته الإعلانية، ثم خصصت مبحثا لتفسير عنوان الكتاب، ضمنته أسباب ودواعي هذه المقولة .(لا تأخذوا العلم من صحفي) وما هي مقاصد وضعها و تأخر التعليق عنها إلى غاية اليوم ، إلى درجة انه لم يتناولها بالشرح أي فقيه من فقهاء الإعلام على الأقل لإزالة لبس ربما قد يطمث جهود علماء صحافيون ، كأمثال عبد الحميد بن باديس ، عمر بن قنور ، والبشير الإبراهيمي، سعيد حمود ، ولست بأفضل حال من الأستاذ الكبير الدكتور محمد مصايف الذي قال : "بأن ابن باديس والعقبي والبشير الإبراهيمي كتبوا بأسلوب عصري يعتني بالفكرة قبل العبارة "مما جعل الدكتور عبد الله الركبي يقول: "إنما الملاحظ إن الإبراهيمي أديب مصلح لا عالم مصلح فقط " والفرق بين الأديب والعالم أن الأول يعبر عن مشاعره وعواطفه بلغة جميلة موحية وهدفه إحداث اللذة الأدبية والإمتاع إلى جانب فكرة معينة يهدف إلى تصويرها بينما تنصب عناية الثاني على الجانب العقلي والتفكير المتزن والوضوح في التعبير، لا بهدف اللذة الفنية وإنما بهدف توصيل الأفكار

أولا: المفهوم اللغوي والموضوعي للتصحيف:

إن أكبر آلية في علم اللسانية هي إدراك و تعلم مفهوم "الدال والمدلول " بالنسبة للوحدة الصوتية، المقصود به اللغة بغية تفسير وتقريب معانيها إلى الأذن المستمعة ، من هنا يأتي تناول المفهومين (اللغوي والموضوعي للتصحيف)، في شكل مطلبين سنخصص لهما كل التوضيحات لتقريب فهمها باستعمال الأمثلة البسيطة ،دون السعي إلى إعادة الحديث، لأنه قيل إذا أعيد الحديث ذهب ضوئه ورونته ولا إلى إطالة الحديث أو كما قال سقراط لرجل: "أنساني أول كلامك بعد العهد بآخره، وفارق آخره فهمي لتفاوته".

أ- المفهوم اللغوي للتصحيف:

وردت في لسان العرب معاني كثيرة تتعلق بأحكام المد والإدغام لكلمة "صحف " باعتبارها المصدر الاشتقاقي لكلمة "الدراسة التي نحن يصدها "فقال سيبويه.."أما صحائف فعلى بابه ، وصحف داخل عليه، لأن فعلا في مثل هذا المثل، قليل"، بل شبهوه بقلب وقلب وقضيب وقضب، كأنهم جمعوا صحيفا، حين علموا أن الهاء ذاهبة، أما الأزهري، فأكد أن الصحف جمع الصحيفة، وهو أن تجمع فعيل ة على فعل مثله ، مثل : سفينة وسفن من المعاني الكثيرة الواردة على الصحيفة نجد ما يلي:

صحيفة الوجه: بشرة جلده وجمعها صحيف إذا تعلق بالبر . والصحيف : وجه الأرض والمصحف: الجامع للصحف المكتوبة بين الدفتين ويضيف الأزهري، إنما سمي المصحف مصحفا، لأنه أصحف ، أي جمع الصحف المكتوبة، وواقفه الفراء. استقلت العرب الضمنة وكسرت الميم، وأصلها الضم، وذكر أبوريد قائلا " تميم تقول المغزل والمطرط والمصحف، وقيس تقول المطرف " بالضم " والمصحف " بالضم".

- الصحيفة: الكتاب .والمصحف والصحفي: هو الذي يروي خطأ عن قراءة الصحف باشتباه الحروف. والصفحة: القصعة أو الجفنة التي يوضع فيها الطعام وهي واسعة تقدم مملوءة بالطعام إثناء الولائم وتكفى الأكبر عدد من الناس . فقال ألكسائي أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تليها تشبع العشرة ثم الصفحة تشبع الخمسة ، ثم المنكلة تشبع الرجلين ثم الصحيفة تشبع الرجل . والتصحيف: يعني به الخطأ من الصحيفة، ثبت مما سبق أن التصحيف هو رواية خاطئة لأحداث نقلت قديما وأعيق تصويبها، وقد هجى المصحف، الذي يقوم بالتصحيف، بأنه يمسح على لسانه العلم مرات (3). فإنه يكتب في ألواح خلاف ما يسمع، وينقل من ألواح إلى الدفتر خلاف ما يكتب، ثم يقرأ من الدفتر خلاف ما يكتب. إن هذا الاختلاف الدلالي على فعل صحف، يقتزن بمنظومة تغير الليل والنهار والشهور وفصول السنة التي اعتمدها العرب كمعايير قياس أزمان الفعل، فقد ذكر سيبويه.. إن للفعل أمثلة أخذت من لفظ إحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون، ولم يقع، وما هو كان ولم ينقطع (4).

إذن فكلية "صحف" تكون متبوعة لكلمة "صحف" بضم الصاد، وهذا يعني الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى أي الكتب، وبتحويل المد المفتحي صارت تعني الخطأ المروى عن الصحف، وهذا في شيم الأولين جرم ومستقبح وإخفاء لمعنى قال الجاحظ: مررت بمعلم وهو يلقين طفلا: (5).

يا أبا الفياش جثا أخرج الفتيان غثا
لبس في الأرض أباس تسزنوا إيلج حثا
ولما سأل هل هو بالعبرية فقال بالعربية، صححها الجاحظ: و إذا هي
يا أبا العباس حبي أخرج الفتيان عني
ليس في الأرض أناس شربوا أملاح منا

2- المفهوم الضمني أو الموضوعي:

بعدما تعرفنا على المعنى الاصطلاحي للتصحيف، فإن الموضوع يترتب عنه دلالات ذات تفاسير مختلفة نحاول أن نعطيها حقها من الشرح وضرب أمثلة حية من الواقع. فالتصحيف معنويا أو موضوعيا هو إثارة الخطأ والتغليب في الفكرة بنية أو بغير نية لإثارة الفوضى و تحقيق نتائج تكون لحساب شخصية يتقاضى من ورائها أجورا و علاوات. أورد أبا القاسم حسين في المحاضرات (6) بأن التصحيف هو نطق الكلمة على غير معناها يسمى تحريفا عن الموضوع فقد سجل في محاضرة أدباء أن أحدهم قرأ حديثا للنبي صلعم " كان النبي يكره النوم إلا في القدر " والصحيح وإنما " الثوم " وقرأ آخر أن النبي صلعم يحب العسل يوم الجمعة و الصواب هو الغسل وليس العسل ، وأحضر ذات يوم مرة جعفر بن سليمان الهاشمي خطابي المقدم هزيلي لقوله.

يا ابن الزواني من بني معاوية * أنت لعمرى منهم ابن الزانية

فلما أحضر لتوضيح ما قال: قالت إنما قلت يا بني الروائي وأنت ابن الراهبة أي اللواتي ينحن على موتاهم، فالتصحيح من الناحية الضمنية هو القيام بتعجيم حرف أو كلمة أو تحريفها عن موضعها سلفاً.

فهو يبتعد عن الاشتقاق في اللغة العربية، باعتبار أن الاشتقاق يشمل المصدر، الذي يدل بطبيعته على زمان مطلق بينما الفعل يدل على زمن معين، وعندما لا يظهر زمن بحوث الفعل يشتق من لفظه كلمة (7) تدل على تعيين الأزمنة (الماضي - الحاضر - المستقبل) وبذا فالتصحيح إنما يراد به تحويل الكلمة إلى كلمة أخرى ذات دلالة ولا تنتمي لأصل الكلمة 2و إنما تتقارب معها، كقول حماد الراوية عندما قرأ الآية القرآنية " عذابي أصيب به من أشاء " فقد قرأ الكلمة الأخيرة بأساء، فصارت الآية "عذابي أصيب به من أساء " فالكلمتين على تشابههما في الشكل يختلفان بفعل التصحيح في المعنى ، وهذا جرم يراد به تحريف الكلام عن مواضعه ، ومهما كانت نوازل التصحيح المسجلة عند الأعراب كثيرة فهي مستقبحة و مستهجنة لكونها معبرة إلى تحريف أقوال العباد.

الأمر الذي سيؤدي إلى تحريف القواعد العلمية و المعلومات المتعارف عليها ، لهذا ورد الاستهجان في التصحيح على أنه كبيرة، تفضي إلى التجهيل و عدم إثبات الحقيقة لتعارض ذلك مع ما يخ دم أقوال الصحافيين، فعلى قدر ما ورد من تصحيحات، إلا أنها لم تؤد إلى خروج فئة منظمة تتولى التصحيح بل كل ما في الأمر حدوث محاولات منذ الزمن الأول.الذي مرت به حركة التنوير و التأليف بالمغرب العربي الإسلامي الكبير سرعان ما تمت إذابتها بفعل انتشار التأليف و التنوير في علوم اللغة والنحو.

لذلك ظهرت نخبة كبير ة في المغرب قاومت مؤلفاتهم، ومخطوطاتهم ظاهرة التصحيح منهم نذكر محمد بن مرزوق الحفيد المتوفى في 1438 وسعيد العقباني المتوفى سنة 1408، ومحمد بن عبد الله المتوفى سنة 1490 ومحمد أبو الفضل المشدالي المتوفى سنة 1461.

في الوقت نفسه كانت ظاهرة الشعوذة منتشرة بسبب غرابة الأساطير المروية عن بني هلال و غيرهم انتشرت الحركة الصوفية في عهد الزياريين على أوجهها مما تولد بين المعتدلين عداً شديداً في عهد الملثمين وكان من بين أقطابهم ابن مدين شعيب الولي الصالح المعروف ومولاي عبد السلام ابن مشيش، و تلميذه الحسن علي الشاذلي ، ومحمد بن عمر الهواري و لحسن بن مخلوف أبركان و إبراهيم النازي إلا أن ذلك العدا لم يثمر على خروج مذهب للتصحيح على غرار مذهب المتكلمة

ثانياً: أسباب ودواعي النهي عن أخذ العلم عن المصحف:

تولدت ظاهرة التصحيح من الغنى الفكري الذي ميز اللسان العربي، بحيث أنه كان كثيراً ما يضيف جمالية خاصة على النص الأدبي، ظل في العهود القديمة يسجل كتحرير وتعجيم للكلام الجميل و للمعلومات القيمة، فقد أورد الراغب الإصباتي مواقع كثيرة عن التصحيح ذهبت إلى تسجيل حالات مستحسنة للتصحيح منها ما قرأ الأصمعي عن أبي عمر.

وعزرتي وزعمت أنك
و الصحيح في العجز
لأنني بالضيف تأمر
لابن بالضيف تأمر
فقال أبو عمر لقد تجاوزت في التصحيف الحطيئة . وفد هجا أبو نواس أبان اللاحقي
بالتحصيف:

صح فت أمك إذ سمتك في المهد أبانا قد علمنا ما أردت لم ترد إلا أنانا
بالنظر إلى ما سبق من النصوص الأدبية نجد أن للتعبير اللغوي ثلاث مستويات
أولها المستوى التنوقي الفني و الجمالي يستعمل في الأدب والفن و الثاني المستوى العلمي
النظري التجريدي يستعمل في العلوم (8) و الثالث المستوى العلمي الاجتماعي الذي يستخدم
في الصحافة و الإعلام، و هذه المستويات موجودة في جميع مجتمعات الأرض، وهي معرضة
للتصحيف و التعجيب حسب الظروف التي تلد عليها، وقد سجل لنا القدامى أروع العلوم .
من خلال مادون ونقله أبناء الجزيرة العربية إلى الأقطار الآسيوية و الأوروبية، فأخذ
الهنود حروفهم من اليمن كما أخذ الإغريق حروفهم من عرب الشمال وهذا ما ساعد على
انتقال الأسطورة الأدبية بين الحضارات، و باستعمال تلك الحروف أبدعت ونقلت كل حضارة ما
يهمها من علوم على قدر لصالته إلى أن ظهر تميز الحضارة العربية، بملكية الإبداع والتفكير
الحر و لا سيما في المباحث النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق (9)
وقد نقل العرب القدامى بعض العلوم نقلا أميناً فالسومريون سبقوا الأمم العربية
فيما بين النهريين وهذا النقل لم يكن إلا في سبيل الإعجاب ما سبقهم إلى أن جاءت
الحضارة العربية في ظل الإسلام. وقرمت بالعلوم إلى أعلى المستويات، فأصبحت بقوة الإسلام
إبداعاً كونياً زاد من تعسف الأوروبيين عليه، مما ألمسه من حصانة للحضارات الفرعونية
والإغريقية و الفارسية و الهندية. وأقل ما يقال عن الحضارة الأمينة على ثقافات الشعوب
الأخرى أنها لم تنسب أية شيء من صنع الأجنبي إليها و لم تصحف أ قوال غيرهم بشهادة
جيمس وستفال وفرانكلين تشارلز و فان دوستراند (10).

في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على
التقريب و أصبحت بغداد و القاهرة و القيروان و قرطبة مراكز لأمعة لدراسة العلم وتلقيه
وتسابق الرحال من ذوي العقول إلى بلازما وظليلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية.
إذن يمكن أن نقول أن التصحيف ظهر داخل الحضارة نفسها وليس بين الحضارات لأن
التصحيف أو تحوير وتعجيب الكلام يشمل ألفن الدلالي للكلمة من خلال استبدالها و تحويرها
لأن ذلك سمي تحريفاً، ونحن نعتقد أن التصحيف ما هو إلا جزء من تحريف يشمل الكلمة
وبناءاتها. ولهذا فإنه يظهر أمامنا أسباب ودواعي رسمت لقاعدة منع أخذ العلم عن مصحفي
الكتب و المعلومات نذكرها ممثلة في العناصر التالية:

أ- أسباب تتعلق بالتجهيل:

إن أكثر فكرة تصل إلى ذهن الإنسان هي فكرة الصلاح و تضخيم قدره الإنسان عبر
الأحقاب و السنين و أبشع فكرة تصله هي الموت أو البهتان،

و بينهما يصير الإنسان محتارا كيف يضمن تلك الراحة النفسية التي تشعره بكينونيته البريئة البليدة عن مظاهر الإجرام حتى ولو باعتماد ظواهر التصحيف.

يعمد الكثير من الناس أثناء المجالس أو الكتابات على الأوراق لأشياء لم يتأكدوا منها و سمعوا منها من أنا آخرين لا يعلمون حقائقها، فينسبون كلمات على ما يلائم سرائرهم ومحصلاتهم اللغوية أو أنهم يؤمنون بأخطائهم من كثرة تنوع شخصياتهم، فمن الشخصيات التي لا تحب الاعتراف بالخطأ ستبعد إلى المغالاة والمرآة وهؤلاء يقول سليمان (11) لا طاقة لي بمسلماتهم ورموزهم التي لا يطالعا النقد، كقول احد أنه قرأ أن النبي صلعم بلغ قيذا و إنما هو بلغ قيذا (12) فهؤلاء المصحفين على قدر ما يمنح لهم من فرص لاكتشاف أخطائهم فإنهم لا يرتدعون. وهذا مردة إلى عوامل نفسية واجتماعية وكلها عوامل نصب. أصبح مدركا أن العلم إذا دخلته هذه المنمات، فإنه يصبح مقوادا للشهر هداما محرضا لأن أشر ما فيه هو التصحيف، لهذا نهى عن تلقي العلم من صحفي، يحرف و يدعي بما لا يعلم ويروى علم ولا يفهم و يتشجع بتحريف و لا يستحي، ومثل هذه الفتنة التي تم حصارها حصارا شديدا من خلال ما كتبه المتصوفة وعلماء الفقه و الطب من علوم من تفاصيل وضعت حدا لأولئك المتشرفين، فلا يصير الإنسان عالما إلا بخمس، غريزة محتملة للعلم، وعناية تامة وكفاية خاتمة و استنطاق لطيف ومعلم فصيح. ومن بين الأسباب النفسية التي نرى أن لها علاقة بالتصحيف:

1- الحرية: والإرادة الحرة

على الرغم ما لهذا المصطلح من ضخامة و فلسفة اقتصادية، فإن قاعدة الإرادة الحرة هي التي تلزم المصحف على تعجيم و تحوير الكلمات مما يراه مناسبا لسلاسته اللغوية، لاعتقاده بأن ما قاله الآخرون لا يتعدى أن يكون كما يؤمن به هو، وهذا الاعتقاد الجازم، بأن كل كائن مسير و مدفوع بقوة سرعان ما يتلاشى، هذا عندما اكتشف أن سبب الغليان هو النار وساد الاعتقاد أن العلم قادر على تغيير كل شيء، فبدأ بتحوير الكلمات بما يلائم اعتقاده، وبالتالي فكل معلومة ترتكز على البناءات اللغوية من مستوياتها الثلاثة التي أشرنا إليها تصبح عرضة للتحوير مما يفقد فكرة تفسيرها أو تحويرها إلى قصد غير وارد أطلاقا على مفهومي فكرته حتى وان كان الأمر جهلا دون علة بالتحوير، فإن المصحف هنا يعتمد على اعتقاده في اللحظة ذاتها دون إن يفهم أو يستوعب على الأقل ما اثر تلك الكلمات المصحفة على موازين أخرى ذات ارتباط بالكلمات الزبينة، وكتب صاحب الخبر إلى محمد بن عبد الله بن طاهر (13) إن فلانا " قائدا " له خز لجية ومجلس مع النساء فكتب إلى عامله إن ابعث إلى فلان و خز لجيته فقرأ الكاتب خز لحيته، فأخذه العامل بعدما قص جزء من لحيته فلما رآه الحاكم ضحك.

إن هذا التفسير يؤكد إن شعور المصحف بإرادته الحرة وبمكان آمن يجعله يعتمد على تحوير الكلمات ربما قاصدا وجاهلا أو شاكا، المهم بالنسبة له إن ينفذ من مطب أوقع نفسه فيه، وهذا مردة دائما كما قلت إلى الفهم الخاطيء لمبدأ الإرادة الحرة وبنفيه لفكرة

الضوابط الخفية وحتى الدينية، فهو عندما قام بتصحيح كلمة من القرآن فقد أساء لدينه وأفتى بما لا يعلم وحرف وهذا جرم، ولهذا قالت الإعراب فوائد كثيرة في باب السكوت، فقال بعضهم لسان العاقل من وراء قلبه فإذا أراد الكلام رجع إليه فان كان له تكلم وإلا تركه ولسان الجاهل قدام قلبه يتكلم بما عرض عليه، والمرء بأصغريه مخبوء تحت لسانه .

2- الرغبة في مخالفة الآخرين:

عندما اشتهرت المجالس قديما وذاع صيت الكتاب والأدباء، كان من بين المثقفين من لا يتعلمون بل يسمعون ويقلدون وذلك ربما لاعتبارات بيولوجية كإصابتهم إصابة ارطوفونية أو نسيان، تحنو رغبة في التعبير على نجوميتهم بواسطة التصحيف والمغالاة فيستدعون من نواحي أدبياتهم المعروفة المسجلة في كثير من النواذر إلى تصحيف الكلام عن مواضعه له ذا قال علي كرم الله وجهه، أعقلوا الخير إذا سمعتموه مثل عقل راعية، لا عقل رواية فرواية العلم كثيرة ورعايته قليلة، فإذا كانت الرغبة في مخالفة الآخرين من أجل الحسن وتعلم العلم لا التقريظ في القواعد وتحريف السنن فإنه نفع ويحق عليه قول الرسول: فقيه واحد أشد على الشياطين من ألف عابد، وقال الرسول في موضع آخر: عمل قليل في علم خير من كثير منه في جهل . ثبت في تاريخ الأدب قيام العديد من الناس بتبني علوم غيرهم، بالإضافة أو بالنقصان من محتوى أفكار الغير حتى صح فيهم ما قالت الأعراب من لا يدري وهو لا يعمل م انه لا يدري فذاك جاهل فعلموه ومن لا يدري وهو يقدر انه يدري فذاك أحمق فاجتنبوه.

3 - الادعاء بالعلم عن جهل:

وصف المولى تعالى هذا النوع من العلماء الجاهلون كمثّل الحمار يحمل أسفارا وهذا الادعاء كما أشرنا إليه حالة نفسية قريبة بالأنما الباطن يحباها الإنسان في طفولته وتندرج معها إذا ما نماها في مراهقته ولا أفضل قرينة نسوقها كمثال ذكره الراغب الأصبهاني في المحاضرات. عندما غضب الخليفة الرشيد على ابن السريس سلمه إلى خادم يقال له ياسر وكان يقوم عليه يحسن خدمته وذات يوم سمع ابن السريس الخادم يقرأ، وبيل يومئذ للمكذّبين بفتح الذال فقال له ويحك المكذّبين بكسر الذال وم ن ثم هجره ولما عاد إلى مجلس هارون الرشيد قال قولته المشهورة، عالم يجري عليه حكم جاهل.

4- معاداة العلماء بعضهم بعضا:

إن أكثر ميزة مضمومة هي غيرة العلماء وطلبه العلم من بعضهم سواء من طريقه التفكير والتصريف، فقد قيل أن هالك العلماء بحسدهم وتحضرني مقولة جميلة جدا لابن عباس " العلماء يتغايبون تغاير التيس في الزريبة، ومن بين هذا التناطح قد يظهر التصحيف للتدليل على سواد أراء عالم على آخر، وقد يغذي هذا التناطح ما ينقله تلامذة المشايخ فيصير تصحيفا من تابع إلى آخر.

ثالثا: الأسباب العامة للتصحيف:

إن التخمين بوجود أسباب ساعدت على ظهور التصحيف إنما يعتبر تأكيد على انتشار التصحيف بصورة كبيرة مع العلم أننا لم نكشف إلا القليل منها والإيمان بأن التصحيف

يشكل ظاهرة خطيرة على الفكر الإنساني يصبح أقرب الى الواقع خاصة وأن المعلومات في زمن الحزمة الرقمية من الصعب مراقبتها أو التأكد منها.

إذا انطلقنا من هاتين الفرضيتين بحساب درجة خطورة التصحيف على الفكر، نكون عند مفترق الطريق لأن المصادر المتواجدة بيننا في القرن 20 هي مصادر مؤكدة لا منزوعة عنها يبقى التحليل الذي ربما يحتويه تصحيف يظهر في المراجع، ولهذا كنت من أشد المعجبين بكتابة الدكتور جمال عبد الهادي والدكتورة وفاء محمد رفعت عندما كانوا أول من أشاد إلى أخطاء التصحيف من خلال كتابتهما المعنونة (أخطاء يجب أن تصح) وفي الأخير أقول إن ظاهرة التصحيف ظهرت لعدة مسببات.

1-الكتابات الخاطئة:

يشاهد الباحث والقارئ ملايين العناوين التي تصدر في الوطن والعالم ككل ، تحمل أفكار ومشاريع إصلاحية ترمز إلى نماء الفكر البشري الذي أصبح اليوم يطال كل مجالات الحياة " الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية .. الخ " ، لكن ما يلفت الانتباه أثناء التصفح هو ظاهرة الأحجام المختلفة وعدد الصفحات التي كثيرا ما لا نجد لها مبررا إلا الحشو بالمعلومات، التي لا تعكس غنا صاحبها أو من وظفها بالقدر الكافي الذي تستعمل فيه في مجالات أخرى، وأن أقرأ في كتاب الليل الوافي للنجاح والارتقاء لصاحبه العالم الإنساني مارتي أنبي سجلمان (14) اكشف تجارب الرجل العلمية الموثقة بدراسات علمية يعرفها العام والخاص كما أنه يستعمل أمثلة واقعية عرفها الناس وتحدثوا عنها ولم يركز على ما قام به من تشخيص على معلومات لغيره من 245 صفحة، أدرك حجم مخاطر الكتابات الخاطئة من دأبت الدكتورة وفاء محمد رفعت على اعتبارها جريمة ترتكب في حق الأمة بل إنها أكبر من ذلك ويمكن للأمة إن تحدد موقفها الحاضر ودورها في المستقبل (15).

لما نتصفح بعض الكتابات الخاطئة في التاريخ ، نلاحظ تدخل المؤرخين في الروايات التاريخية ويروونها وفق مناهجهم وأفكارهم والخلط بين أفكارهم على فترات متعاقبة عاشوها يعطل فهم الحوادث كما حصلت، وقد صحح الدكتور عزيز العظمة، الكتابة التاريخية واكتشف تلاعب المؤرخين، حيث اتهم المؤرخين بالرتابة والعتبة والاستطراد ولم يجد في التواريخ سوى تاريخ عهد وموعد خارج الزمن ، ولم يجد ما يري في هذا التناهي المتناسي ماعدا التتالي (16).

وما يدرين أن أصاب أو أخطأ مادامت عمليات النقل منذ بدايتها الأولى كانت لنقل علوم وأخبار أمم عجمية وبلغات شتى وسنن كانت محفوظة لعدم معرفة الأمم السابقة بالكتابة بالقدر الذي يوجد لدينا الآن. فكل الحضارات القديمة لم تصلنا منها كتابات مدونة ماعدا ما سجلوه في النقوش الصخرية والمعابد الفرعونية، وهذا ما يؤكد على أن ما تناقل إلينا يدخل في دائرة التاريخ غير أمين الذين تكلم عنهم الإستاد نويهض وعدم الأمانة ليس في طريقة العلم بالحدث ورفض نقله كما هو بل هو نقل حرفي لروايات شفاهية من السنة من هم أقرب إلى الأحداث.

إن حاجة العرب إلى التدقيق في حفظ الأنساب عن طريق تسلسل الإباء و الأجداد ورواية أخبار حروب القبائل وتسجيل مفاخرها من جيل إلى جيل، هو اجعل حركة التنوين تنشط عند العرب كما ذكر ذلك حاجي خليفة حسب كشف الظنون (17) وقد ذكر في عهد الملك المنذر بن نعمان أنه أمر بنسخ أشعار العرب وبتدوينها ودفنها في قصره الأبيض ، حيث عملت لاحقا القبائل العربية على تعليم أولادها وتحفيظهم الأنساب على سبيل المفاخرة وكان ذلك ممزوجا ببطولات حرفية ميزت التعالي في وصف الأعمال الحربية إحرزا لما يسمى بالشرف، وقد ساعد هذا الهراء على إبراز الحركة الشعوبية ذات الأبعاد التقليدية في تصرفاتها يرتابها في ذلك العودة إلى الماضي والتفاخر بعصبيتها الجغرافية التاريخية وقد ذكر ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد لكل أمة في ماضيها غير ، فالرومان تفاخر بتأسياس سلطانها وكثرة مدننا، وعظمة مدينتها و الهند تفاخر بحكمتها وكثرة عددها و الصين تزهر بصناعتها وفنونها الجميلة، نؤمن حقا بأن نقل العلوم عبر الشعوب كان ظاهرة تقدم وبحث عن مناهج تفكير الشعوب الأخرى .

يرى المؤرخ الفرنسي بروويل أن التاريخ البشري متشابه لا فضل لراوي على آخر، بل يرى أن التجمعات الحضارية كانت تتصل باستغلال ذاتي وتاريخ مستقل إلى النتائج نفسها دون تدخل خارجي وبقي الأمر يسري في سياقات حضارية إلى نهاية القرن 15، إذ بدأ الافتراق وأخذ ينمو في العالم ما يسمى بالنظام الدولي الذي يفرض شروطه على الآخر بهدف تدمير إنجازاته و استبدالها بإنجاز واحد ونمط واحد من العادات و التقاليد، ولاحظ في ذلك الإنسان من القرن السادس عشر بأمر عينه تهاوي معايير الثقافة البرينة إلى الثقافة اللئيمة من تبحث عن نصرة القوي.

إن هذا الاعتقاد يجعلنا نشكك في وصول معلومات مصفحة بنصرة المذهب الإيديولوجية التي ظهرت من العالم بعد القرن 17، كما أن ذلك يفتح أمامنا تساؤلا آخر مفاده هل كل الكلمات المنقولة من لغة إلى أخرى مطابقة، وما هو الأصل في حالة تشابه المعنى أو عدم وجود نفس المصطلح، و إذا ما وجدنا إجابة شافية هل يمكن الجزم أن العلوم و المعارف يفهمها الغربي أو الفارسي هي نفسها مائة بالمائة باللغة التي نقلها بها، إن في ذلك ريبية وشك يبعثنا عن الاعتقاد الجازم ببراءة المعلومات الوافدة خصوصا عندما نعلم أن محاولة تشخيص الواقع المحلي هي صراع قبل أن تكون حوار بسبب أن فكرة الحوار تبحث عن أثر كامن في الذات البشرية تسبب فيه ذلك الخوف الثابت في الذات البشرية، ه ذا الشبح المخيف رافقه في كل مراحل حياته.

ومن استقراء حوادث التاريخ باختلاف رواياتنا، نلاحظ تناص ظاهرة الحسد كونها تحب الحياة لدى بعض الناس لأنها تقهر الإنسان على ما أنجزه غيره أو جاره أو صديقه وهو ما يؤدي به إلى تخيير كل الإمكانيات من أجل انتزاع ذلك الشيء وهو في الحقيقة جوهر من حلبه الصراع حول الحياة عند الإنسان الأول الذي كان يؤمن بثقافة الاغتصاب للحصول على ما يريد.

إن هذا التشردم يؤدي إلى تصحيف المعاني والكلمات وحتى الأحداث ويجعل منها أداة من أدوات قهر الإنسان لأخر إلى أحداث مغالطات تاريخية كما ورد في كتابي الدكتور محمد سعد غلاب و الدكتور برد الجوهري.

كان الإنسان أصله حيوان (الإنسان القرد) وهما بذلك يساندان نظرية أصل الأنواع إلى وضعها داروين سنة 1859، وما ذكره رالف لينون في مساندة نظرية أصل الأنواع هو قوله °يتضح من جميع ما وقفنا عليه حتى الآن أن أجدادنا البعيدين كانوا قرود صورية ، فأقل ما يقال عند تناول المعلومات أنها غير موفقة خصوصا وأن أغلبها أعد من قبل أعداء الحضارة الإسلامية. والله يقول وكرمنا بني آدم، وخلقناه في أحسن تقويم، فكيف يكون أجدادنا قرود. 2- المجالس المغالية:

إذا انطلقنا من المنطلقات الفكرية المشتركة التي بنى عليها زعماء التصحيف في الغرب عدائهم دون شك سنقف عند تأكيد حقائق ظلوا لفترة من الزمن يكابرون لإرسائها منها:

- التأكيد على تفوق الطبيعة الخارق للعادة واختفاء عملية التكليف الشرعي لآدم كما ذكر ذلك رالف لينتون (18)

- الاستخفاف بالإنسان والخط من خلقه إلى درجة القرد وربط نسله بالقرد وهو إساءة لأبونا آدم عليه السلام كما ذكر ذلك الدكتور محمد سعد غلاب.

- ترسيخ مقارنة الأديان كعلم لتأكيد أن الدين من صنع العقل البشري
- إنكار الروايات التاريخية التي تعتمد على مصدر القرآن والسنة
- المحاولات الرامية إلى تجاهل تاريخ الأشياء
- إحياء النصر العصبية التي تحاول تقزيم الإنسان وتفكيك عقيدته.

إضافة إلى ذلك يراد اليوم في الشبكة العنكبوتية الآلاف من المواقع الإخبارية والاستشارية التي تتناول قضايا مصحفة عن آخرها وبدون ردع في ظل غياب برنامج معلوماتي لرفض تلك الأباطيل، وفي الوقت الحالي لا يمكن معالجة الأمر إلا بتطبيق سياسة الإكثار من المواقع المدافعة عن حقائق الدين القويم والعلوم الإنسانية البريئة دون الإنفراد بما يكتبه الخصوم لكون ذلك لا يؤدي في نهاية المطاف إلا للحقيقة واحدة هي العلم المسبق الكامن في نواتنا مهما يكن المجلس المغالي في شكل منظمة حكومية دولية أو غير حكومية خارج أوطاننا من حيث ضاخته أو نشاطه لا ينبغي ي لدعاة التأصيل أن يقربا ذلك إلا بالمواجهة الدامغة بالدليل الفكري والعلمي والموضوعي على غرار ما كان يقوم به المحامي العالمي المرحوم بيدات المبني على الاستقراء النظيف لحوادث التاريخ.

ونأخذ على سبيل المثال من المجالس المغالية التي حورت الحقائق وصحفت كثير من الأقوال ما ترتب عن نشر كتاب أدونيس (بحث في الإبداع والاتباع عند العرب) حيث انقسم المبدعون في السبعينات في محاولة منهم في السطو على التراث بتأثر من المدارس العربية الليبرالية في أوروبا والاشتراكية. وصل ذلك التنافس إلى حد اختراع قوانين ظرفية

لتبرير اشتراكية الإسلام أو رأسمالية الإسلام واستخلصوا أمثلة جديدة هذا يساري وآخر يمني وهذا عقلائي وآخر غير عقلائي وهذا مع الحرية والأخر مع الاستبداد (19)

ذكر علي بن محمد بن عبد الله الفخري وجود 73 فرقة إسلامية وفرعها 18 إلى 18 فرقة من أهل السنة والجماعة و18 فرقة من الخوارج و18 فرقة من الشيعة 18 فرقة من المرجنة فإذا كانت الفرق توضح في نصوصها مرجعيات غير القرآن والسنة فهي فرق أقل ما يقال عنها أن تصحف دون وازع أو دليل بخالها فقط الحنين إلى الثابت الذي ذكره أدونيس في أطروحة الدكتوراه وقد أحصى 18 حركة احتجاج ضد السلطة بدأت قبل سنة 40 هـ وانتهت في 132 هـ ويرى أن تلك الحركات يغلب عليه طابع طوباوية دينية واشتراكية صوفية .

إن المجالس المغالية وعلى تعددها إنما تسعى إلى طمس حقائق، خدمة لأغراض كثيرة ولا يحوزها في ذلك التصحيف للمعلومات والأوراد بل ترى أن العبء كل العبء في الحركات التنويرية المضادة لما يزرعونه من فتن مأ نزل الله بها من سلطان .

خلاصة.

ونحن ننهي هذه الدراسة البسيطة توصلنا إلى تحديد فكرتين مستقلتين لشرح مقولة^٥ لا تأخذوا العلم من صحفي^٦ ويقصد به ذلك الإنسان أو العالم الذي يتولى تحوير الكلمات الأصلية الواردة في المصادر أما فن الصحافة يرتبط بالإعلام والتبليغ والتثقيف ، ورغم أن فن الصحافة يعتبر الأقدم منذ بدا الخليقة الإنسانية عندما كان الإنسان يكتب على البردي واللفائف الطينية فإن التصحيف ظهر بقوة في المراحل المتأخرة في العصر الأموي. وعلى كل فإن مفهوم الصحفي يقترن بالكتابة وتقنياتها ذات البعد الإعلامي لأن معيار الكتابة يمتلكه كل الناس داخل المجتمع من إعلاميين ومراسلين لكنهم لا يملكون ملكة البعد الإعلامي ذي قابلية التأثير فلا يمكن أن نقيس حذاقة الصحفي بمعزل عن التطورات الحديثة في ميدان تكنولوجيا وسائل الاتصال.

المراجع

- 1- شون ماكبرايد ، أصوات متعددة وعالم واحد المؤسسة الوطنية للكتاب 1982
- 2- محمد لعقاب مجتمع الإعلام والمعلومات، ماهيته وخصائصه دار هرمة ط 2000
- 3- الوسيط في الدراسات الجامعية، مجموعة من الأساتذة وعندهم الطاهر بن خرف الله دار هرمة للنشر والتوزيع، الجزائر [2003]
- 4- وليان ريقرز، وسائل الإعلام والمجتمع، دار المعرفة، ترجمة إبراهيم إمام، 1975، القاهرة.
- 5- أديب خضور، الإعلام والازمات، دار الأيام، 99 الجزائر
- 6- نبيل عارف، مقدمة في علم الاتصال، مكتبة الأمارات العين، 1985 دمشق

- 7- وليد نويهض - المفكرون العرب - مرجع سابق -
- 8- محمد بن عبد الله الفخري - تلخيص البيان في ذكره أهل فرق الأديان، دار الحكمة -
- 9- رالف لينتون - سحر الحضارة - المكتبة الأنجلوسكسونية -1955- ترجمة الدكتور أحمد فكري
- 10- محمد سيد غلاب - الجغرافية التاريخية مرجع سابق س.
- 11- حاجي خليفة - كشف الفنون عن أسامة الكتب و الفنون 2002
- 12- أنظر كتاب المفكرون العرب ، وليد بونهض - دار ابن حزم للطباعة و للنشر و التوزيع - 1996 بيروت -
- 13- مارتن ابي بي سليمان - ما لذي يمكنك تغييره - الدليل الوافي للنجاح والارتقاء ، مكتبة جرير - 2004 الرياض.
- 14- جمال عبد الهادي ووفاء محمد رفعت - منهج كتابته التاريخ الإسلامي - دار الصديقية ، 1989 - الجزائر
- 15- عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية دار المعارف - مصر
- 16- د/ عبد العزيز شرف - اللغة الإعلامية، دار الجبل - بيروت
- 17- أبي القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني: (مرجع) سابق
- 18- عبدا لله بخلخال، التعبير الزمني عند النجاة العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 27
- 19- أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني - محاضرة الآداب - منشورات الحياة - بيروت.